قراءة سورة عبس في ضوء منهج السياق

د٠ محمود إبراهيم محمد الرضواني (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.. وبعد

فهذه لمحة سريعة عن دور السياق في فهم النص القرآني

نبّه علماء السلف إلى أهمية السياق في فهم النص القرآني، قال الزركشي: (أحسن طريق للتفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان، فقد فصّل في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فإنه قد بُسط في آخر. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن)(١).

وقال ابن القيم: (السياق يرشد إلى تبيين المُجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته)(٢).

وقال د. تمام حسان(مما توارثناه من أقوال السلف عبارة يصدقها علم اللسان الحديث، وبخاصة ما يُسمى من فروعه علم النص تلك العبارة هي قولهم: "القرآن يفسر بعضه بعضا" ... لكنهم راعوا هذه المقولة في الأغلب الأعم) وفي بعض المواضع لم يلتزموا بها)(٣)، كالذي معنا هنا.

(*) مدرس بقسم الدراسات الأدبية كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٥).

(٢) بدائع الفوائد، دار الفوائد: ١٣١٤/٤.

(٣) انظر البيان في روائع القرآن، تمام حسان، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م، ٣٢٣/٢-٣٢٥ .

وازدادت أهمية السياق في الدراسات الحديثة واعتماده منهجا متميزا في فهم النص أيا كان نوعه، حتى أصبحت (فكرة السياق هي واحدة من الأفكار الأساسية في عملية التلقي لأي نص، والاستجابة لنظامه الإشاري، فبدون وضع النص في سياق يصبح من المحال فهمه فهما صحيحا)[١]، وأصبح للسياق الدور الحاسم في تحديد معاني الألفاظ وضبط دلالاتها. وبخاصة النص القرآني الذي يتميز بخصوصية شديدة في تماسكه النصي؛ لأنه (نص يقدّم نفسه بوصفه نصوصا متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدم نفسه بوصفه نصا واحدا في إطار السور المتعددة، وإن المعنى ليتعدد في بنائه نموذجا بتعدد النصوص المتداخلة في إطار السورة الواحدة كما أنه على العكس من ذلك، يرتد إلى بؤرة دلالية واحدة في إطار السور المتعددة)[٢].

والسياق القرآني يدور حول محورين؛ رأسي، وأفقي؛ أما (**المحور الرأسي** فنجد فيه كل العناصر الدالة – نصوص آيات جمل– والقادرة على الاضطلاع بوظيفة واحدة والقابلة ضمن هذا المحور أن تتبادل فيما بينها) وهذا الفكرة عبّر عنها علماء التفسير بقولهم: "القرآن يفسر بعضه بعضا"، (**وأما المحور الأفقي** فنجد أن القرآن يبدو فيه كلا واحدا ذلك لأن كل الوحدات القرآنية تتراكب فيه وتتآلف، فالجمل تدخل في الآيات، والآيات في النصوص، والنصوص السور والسور في القرآن ...)[٣] مما يدلنا على تميز القرآن في التماسك النصي، ولا غني لأي مفسر لكلمة أو لآية أو لسورة عن وضع ما يحلله في سياقه القرآني الداخلي والخارجي، الأفقي والرأسي؛ لأن معنى الكلمة القرآنية الدقيق يتحدد وفق السياقات

---

(١) انظر تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٤٤.

(٢) اللسانيات والدلالة، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١/١٩٩٦ص: ٩٧.

(٣) السابق بتصرف ص: ٩٨-٩٩.

التي ترد فيها من سياق السورة، وسياق ورودها في القرآن كله، فإننا إذا أهملنا هذا المنهج في فهم النص القرآني خاصة ستضيع من بين أيدينا أسرار النص القرآني.

ولذلك أسعى في هذه القراءة للخطاب القرآني في سورة عبس، من خلال منهج السياق والإحالات النصية، إلى الكشف عن شبكة العلاقات النصية الأفقية والرأسية، مع التركيز على إعادة قراءة بنية الضمائر في الآيات الأولى [١-١٢]، بغية وضعها في سياقها الصحيح من هذه السورة، والقرآن كله، وستكون هذه المحاولة من خلال طرح عدة حوارات حولها.

تاريخ نزول السورة:

هي الرَّابِعَة وَالْعِشْرونَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ[١]. وأرجح أنها نزلت في الأشهر الأولى من البعثة، قبل سورة (النجم) وليس بعدها كما سنرى من تحليل آيات السورة.

محاور السورة:

يمكن تقسيم السورة إلى سبعة محاور على النحو الآتي:

١. الآيات: [١-٤]: بيان مشهد النبي في دعوة الكافر وموقف الكافر من النبي والأعمى.
٢. الآيات: [٥-١٠] بيان منهج النبي في الدعوة وتوجيهه إلى الأفضل.
٣. الآيات: [١١-١٦] تنزيه. آيات القرآن وأنها تذكير للناس.
٤. الآيات: [١٧-٢٣] بيان أصل خلق الإنسان وإنعام الله عليه في إيجاده.
٥. الآيات: [٢٤-٣٢] بيان نعم الله في الرزق والإطعام.
٦. الآيات:[٣٣-٣٧] من مشاهد القيامة والتذكير بأهوالها.
٧. [٣٨-٤٢] أحوال الناس يوم القيامة.

---

(١) انظر التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٠١/٣٠ .

أسئلة البحث:

يذهب جمهرة المفسرين، إلى القول بأن الفاعل في قوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى)، هو النبيّ ﷺ. وهذا يقودنا إلى عدة أسئلة:

هل توجد أدلة نقلية أو لغوية لهذا التفسير؟

ما مدى موافقة هذا التفسير لأخلاق النبي ﷺ في القرآن؟

ما الآثار المترتبة على هذا التفسير؟

ما صلة مطلع السورة بمقاصدها؟

هل يتغير هذا التفسير لو أعدنا قراءة السورة في ضوء نظرية السياق؟

افتراضات البحث:

ماذا يحدث لو قلنا: إن الذي عبس هو الكافر الذي كان يدعوه النبي ﷺ إلى الإسلام؟

وما الذي يمنع مثل هذا القول؟

كيف نستدل من خلال السياق على ما يؤيد هذه الفرضية؟

ما الطريق للكشف عن مرجعية الضمائر؟

بيان صلة محاور السورة بعضها مع بعض.

سبب اختيار هذه السورة

تتعلق هذه السورة بالذات المحمدية نبي الأمة، وعلى الرغم من معرفة الأمة بمدى تقدير المولى جل جلاله لخاتم النبين غير أن المفسرين عند تحليلهم لبنية الضمائر في أول السورة؛ وقعوا في تأويلات متناقضة ومضطربة؛ من خلال محاولة إيجاد مخرج لابن أم مكتوم أحيانا، أو للنبي ﷺ أحيانا أخرى. وأخذ بعضهم يزيد في التساؤلات والتأويلات والمسائل والعِبَر، كلٌّ على حسب مقدرته العقلية [1]. ويرى بعضهم أنه كان عتابًا قاسيًا، ويسود عدّة صفحات؛ لتفسير هذا

(١) انظر على سبيل المثال ما ذكره الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢١٤/١٦ وما بعدها.

العتاب، وما ترتب على هذا العتاب[١]. وبعض منهم حاول الترفق في تعليل العتاب، وآخرون أشاروا إشارات سريعة لا يتوقفون أمام تفصيلات الموقف. ويطول المقام بذكر هذا التأول أو ذاك.

واستمر التعليل والتخريج حول مرجعية الضمائر في أول السورة اعتمادا على ما أثبته المفسرون قديما، دون أدلة نقلية أو لغوية أو أسلوبية واضحة إلى يومنا هذا، راجع كتب التفسير لتقف على حقيقة أقوالهم، لذلك رأيت من المهم إعادة النظر فيما قيل حول هذه الآيات ومعرفة من أين أُتي جل المفسرين قديما، ولا تزال البحوث الحديثة تسير في ركاب تفسيرات الأوائل دون مناقشة أو تعديل. حتى صاروا يدورون في حلقة مفرغة، كلٌّ يكرر ما قيل من قبل، دون إضافة أو تعديل؛ لذلك أردت إعادة صياغة هذه الإشكالية بمنهج جديد معتمدا بعض معطيات الدراسات النقدية الحديثة.

وقبل أن أبدأ في بيان حقيقة الذي عبس، وبيان صلة مطلع السورة بمقاصدها، أشير إلى أنني وجدت رأيا يخالف ما ذهب إليه الجمهور، بأن أرجع الضمير في (عبس) إلى الكافر. قال بهذا الإمام على بن محمد بن أحمد البصرى من أصحاب الإمام محمد أبي بكر الأبهري المالكي (٢٩٠-٣٩٥هـ) وكان يلقب بأبى تمام، حكاه عنه القاضي عياض في الشفا[٢]، ولم يردّ هذا التفسير ولم يعلق عليه.

وقال بذلك أيضا الإمام أبو الحسن الداوودىّ، عبد الرحمن بن محمد بن المظفر (٣٧٤-٤٦٧هـ)[٣]. حكى ابن حجر تفسيره لهذه الآية في سياق شرحه

---

(١) انظر ما كتبه سيد قطب في الظلال ٣٨٢٢/٦ وما بعدها .

(٢) انظر الشفا ٨٢٢/٢.

(٣) من أهل (بوشنج)، وهو آخر من روى صحيح البخاري عن الإمام عبد الله بن أحمد بن حمُّويه السَّرخسىّ. قال عنه الحافظ الجرجانى: «شيخ عصره وأوحد دهره ، والإمام المقدّم في الفقه والأدب والتفسير» . انظر في ترجمته سير أعلام النبلاء ٢٢٢/١٨.

للبخاري[1]. وحكاه عنه أيضًا الإمام العيني، وقال: (وأغرب الدَّاوِدِيّ، فَقَالَ: هُوَ الْكَافِر الَّذِي كَانَ مَعَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم) [2].

ومن الغريب أن هذا الرأي لم يشر إليه أي أحد قديما أو حديثا على الإطلاق، سوى ما كان من ابن حجر والعيني. لكن هناك من يؤيده بطريق غير مباشر، وهو ما يفهم مما قاله الزمخشري، في تفسيره للضمير في قوله تعالى: (لعله)، قال: «وقيل: الضمير في (لعله) للكافر. يعنى أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام، أو يتذكر فتقرّ به الذكرى إلى قبول الحق» [3]. ونقله عنه بعض أئمة التفسير: القرطبي، وفخر الدين الرازي، ولم يعترض أيٌّ منهما على هذا التفسير، ولم يعلقا عليه.

ولا يستقيم القول بهذا التفسير إلا إذا قلنا أن الذي عبس هو (الكافر). وإلا فما القرينة التي تؤيد هذا الإرجاع؟!.

وبهذا الرأي الآخر في تفسير الضمير في عبس بأنه الكافر الذي كان مع النبي لم يعد تفسيرهم مجمعا عليه، وهذا الرأي الثاني يقودنا إلى استخدام استراتيجية صياغة المشكلة بأسلوب آخر لعله يسهم في فهم أدق وأصح، يقول صاحب كتاب (كيف تصبح مفكرا مبدعا): (طرح الفنان الفرنسي بو سيزان تصورا جديدا لتعددية الرؤى المتأصلة في النظر للعالَم منطلقا في منظوره من حقيقة يسيرة وهي أنه؛ إذا اقترب الإنسان من سطح بصري بعين واحدة مفتوحة أولا، ثم

(١) انظر فتح البارى، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، ٥١٨/١٤.

(٢) انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، االمطبعة المنيرية، ١٩/ ٢٧٨.

(٣) الكشاف ، تحقيق مصطفي أحمد حسين ، الاستقامة ١٩٤٦ ، جـ٧٠١/٤.

أغمض تلك العين لنفس المساحة بالعين الأخرى فسوف يختلف المنظر، وبالمثل إذا غيَّر المرء موضعه، سيتبدل المنظر من جديد) [١].

هذا التجربة مهمة جدا في مجال الدراسات الإنسانية، وهذا بالفعل ما قامت عليه فكرة هذا البحث حيث غيرت من موضع النظر إلى السورة، ونظرت إليها من جهة جديدة؛ لأن تفسير جمهرة المفسرين للضمائر الأولى من السورة فيه إشكالية كبيرة، حاول بعضهم حلّها من المنظور الذي انطلق منه المفسر الأول، فلم يقدم أحد شيئا لحل تلك الإشكالية. لأنه عند دراسة النص القرآني (علينا أن نوسع مجالات السياقات ونعدد مسالكه، وإلا فإن الاقتصار على سياق واحد دون الالتفات إلى عدة جوانب وسياقات متعددة سيجعل النص بنية لغوية مغلقة)[٢]، وسنتناول سياقات السورة على النحو الآتي:

١- السياق التاريخي الصحيح (سبب النزول).

٢- تفسير هذه الآيات في ضوء السياق التاريخي لنزولها.

٣- السياق اللغوي من داخل السورة، ومن خلال القرآن كله.

٤- السياق الخارجي من خلال منهج الخطاب القرآنِي للنبي ﷺ.

٥- السياق الخارجي من خلال أسلوب القرآن في خطاب الكافرين.

٦- السياق التاريخي من خلال من أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة.

٧- السياق الخارجي من خلال أخلاق النبي ﷺ في القرآن.

---

(١) كيف تصبح مفكرا إبداعيا، مايكل ميكا لكو، ترجمة غلا أحمد إصلاح، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مكتبة الأسرة)، ص٢٣، ٢٥.

(٢) انظر المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، عادل رشاد غنيم، (بتصرف) المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك ابن سعود، ١٤٣٤/٣/٦هـ - ٢٠١٣/٢/١٦م، ص: ١٨.

قراءة في سبب النزول (السياق التاريخي الأول):

لا أحد ينكر أهمية السياق التاريخي (بمعنييه: العام؛ وهو سياق الأحداث التاريخية التي حكاها القرآن الكريم، والمعاصرة لزمن التنزيل. والخاص؛ وهو أسباب النزول)[1]، لكن الإشكالية تكمن في استخدام بعض النصوص الضعيفة متنا وسندا في أسباب النزول، وإنزالها على السورة، دون عرضها على مقاصد السورة، ودلالات السياق اللغوي، وهذا ما وجدته في الأسباب التي ارتبطت بسورة عبس. إذ وردت بعض الأخبار منها الصحيح، ومنها الموضوع والذي لا أصل له في ذكر حضور ابن أم مكتوم[2] إلى النبي ﷺ، وأكتفي بالصحيح منها، وهو ما روي:

١- عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة قالت: (أُنزلت (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم الأعمى، قالت: أتى النبيَّ ﷺ فجعل يقول: يا نبيّ الله، أرشدني. قالت: وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبى ﷺ يُعرِض عنه، ويقبل على الآخر، فقال النبيُّ ﷺ: يا فلان، أترى بما أقول بأسًا، فيقول: لا، فنزلت {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى }[3].

---

(١) منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد : ١١١الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م، ص: ٣٠.

(٢) وقيل اسمه: عمرو بن أم مكتوم . وهو ابن خال أم المؤمنين خديجة رضوان الله عليها . وبعض المصادر أوردت أن اسمه: عبد الله بن شريح. انظر الإصابة ٤/٦٠٠-٦٠٢ ، طبقات ابن سعد ١٩٣/٤.

(٣) رواه ابن حبان ٢٩٤/٢ ح٥٣٥، "سنن الترمذي" ٥/ ٤٣٢: ح ٣٣٣١ كتاب تفسير القرآن، باب ٧٣، قال الترمذي هذا حديث غريب. وقد روى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه، ولم يذكر فيه عائشة. وانظر جامع الأصول ٤٢٣/٢، ومسند أبى يعلى ٢٦١/٨ ح٤٨٤٨. وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة عبس)، ط دار التأصيل، ٤/ ٥٠٧، رقم (٣٩٤٤) وقال محققو المستدرك: هذا حديث ليس على شرط الشيخين فلم يرد في الصحيحين رواية ليحيي بن سعيد عن هشام بن عروة.

٢- وأخرج مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّهُ قَالَ: أُنْزِلَتْ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ،. جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اسْتَدْنِنِي. وَعِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ. فَجَعَلَ النَّبِيُّ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ، وَيَقُولُ: «يَا أَبَا فُلاَنٍ، هَلْ تَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْساً؟» فَيَقُولُ: لاَ وَالدِّمَاءِ، مَا أَرَى بِمَا تَقُولُ بَأْساً. فَأُنْزِلَتْ: {عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَن جَاءَهُ الأَعْمَى}(١).

٣- وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: " أَنْزَلَ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِينَ؛ فَيَقُولُ: «أَتَرَوْنَ بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟» فَيَقُولُونَ: لَا. فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} "(٢)

٤- وروي عن أنس في قوله (عبس وتولَّى) جاءَ ابنُ أمِّ مكتومٍ إلى النبى ﷺ، وهو يكلِّم أبىَّ بن خَلَفٍ، فأعرضَ عنه، فأنزل الله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}. قال: فكان النبى ﷺ بعد ذلك يكرمه)(٣).

هذه الأخبار هي أصح ما ورد في هذا الباب، وأما غير هذه الروايات فهي لم تصح، إما أن تكون منكرة في متنها أو ضعيفة في سندها، أو مرسلة، أو لا أصل لها، ومن هذه المرويات الباطلة التي لا أصل لها قولهم: (أن النبي كان يقول لابن أم مكتوم حين يلقاه: «مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربى»! هذه المقولة لا سند لها، ولم أجدها في كتب الحديث، وهي في الكشاف للزمخشري وحده دون سند. وقد اتكأ المفسرون على هذه المقولة الباطلة كثيرا، مع بقية الأخبار التي لا أصل لها

---

(١) الموطأ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة بن زايد، أبو ظبي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م ٢/ ٢٨٤، وطبعة الأفكار الدولية بعناية حسان عبد المنان: باب: مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ص:١٢٦-١٢٧رقم: (٨٦٢). وصوبه الإمام الذهبى.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي (٨/ ٢٦١) رقم الحديث(٤٨٤٨): إسناده صحيح..

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٤٣١ ح٣١٢٣).

في توجيه ضمير (عبس) إلى النبى، وتفسيره بأنه عتاب. وقد كانت هذه الأخبار أول تلقٍّ للنص القرآني وقراءته بعيد عن سياقه القرآني، واللغوي والتاريخي.

ومن ثَمّ ستكون مناقشتنا أولا لهذه النصوص السابقة التي صححها بعض أئمة المحدثين فقط، ولا نعوِّل على غيرها من الروايات الأخرى التفسيرية الضعيفة، ولا نقبل ما ورد فيها من تزايدات في مقام النبوة، مثل: ما رواه ابن سعد بسنده (١٩٤/٤-١٩٥) إذ روى الخبرين السابقين بزيادات سقيمة فاسدة لا يعوِّل عليها. وما رواه ابن اسحاق (٣٦٣/١-٣٦٤). وتتضح في روايتي ابن سعد وابن اسحاق تدخل الرّواة في ألفاظ الخبر ومحاولة إسقاط ألفاظ سورة عبس على أخبارهم، فالتزيد فيهما واضح، ولا نعتمد عليهما في تفسير الآية. وإذا أنت راجعت بعض كتب التفسير لهذه الآيات تجدهم اعتمدوا هذه الروايات الضعيفة والمنكرة في تفسيراتهم.

وقبل أن أناقش تلك الأخبار وأبين مدى صلتها بالسورة أشير إلى محاولة غير مكتملة لحل إشكالية الضمائر كانت للعالم الهندي عبد الحميد الفراهي، حيث عرض بعض الأخبار التي تروى حول السورة ثم قال: (ولا يخفى أن هذه الروايات كلها تنتهي إلى الذين لم يكن واحد منهم شهد الواقعة. فلو صحّت لم يكن إلا استنباطا، لا خبرا. والظاهر من اختلاف هذه الروايات أنها ظنون وأوهام ناشئة مما توهموا من التأويل، فوضعوا له قصة وخبرا افتراء على من أسندوها إليه. فكيف يوثق بها وأسانيدها ضعيفة جدا)[1]، ثم تابع بقوله: (والقرآن ظاهر الدلالة على كذبها، وذلك بوجوه) وذكر عدة أوجه أخرى لكنه في النهاية أثبت ما أثبته القدماء مع تغيير يسير في تفسير عبوس النبي، على الرغم من عنايته في تفسيره بمنهج السياق القرآني، وتبقي إشكالية تفسير الضمائر قائمة.

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، اعتناء الدكتور عبيد الفراهي، دار الغرب، الطبعة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ٥٩٨/٢.

ملاحظات على الأخبار السابقة ومقارنتها بالآيات:

١- مدار الأخبار السابقة على السيدة عائشة، وسيدنا أنس رضي الله عنهما، وهما لم يكونا موجودين زمن الواقعة، فهي إذن من مراسيل الصحابة؛ كما قال الفراهي؛ لأنها كانت في أوائل البعثة، وتمت بمشهد من مجلس المشركين وابن أم مكتوم فقط؛ وهو غير مبصر لا يدرك الإشارة الصادرة من الوجه. فهو لا يمكن أن ينقلها لنا؛ ولم تُروَ من جهته أيضا، وهو صاحب الواقعة، وفي الوقت نفسه أن الكافر الذي كان مع النبي ﷺ لم يسلم حتى يقص لنا ما حدث. أضف إلى ذلك كله أنه لم يصلنا فيها خبر صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ بلفظه يفسر لنا ملابسات الموقف. وأول ما نبدأ به هنا هو الموازنة بين مقاصد الأخبار السابقة، ومقاصد الآيات:

فإذا عدنا النظر في الأخبار والآيات معا سنجد أن ثمة فروقا مهمة لا يمكننا إغفالها، على النحو الآتي:

الأخبار السابقة تضمنت الآتي:

أ- مجيء رجل أعمى (تحدده الروايات أنه ابن أم مكتوم)، إلى النبي ﷺ يطلب منه الهداية.

ب- انشغال النبي ﷺ عن طلب ابن أم مكتوم بدعوة أحد المشركين، ومن ثم فُسر في الأخبار بأنه أعرض عنه.

ج- عرض النبي الدعوة على أحد المشركين.

د- حوار يدور بين النبي وأحد الذين يدعوهم من المشركين لم تحدده الروايات الصحيحة ولم تتفق عليه الأخبار الضعيفة.

هـ- أنه ثمت مجلس جمع النبي مع كافر يدعوه إلى الإسلام. وأن هذا المجلس كان عند الكافر في بيته أو مجلسه الخاص، كما تروي كتب السير بأن النبي كان يذهب إليهم في مجالسهم ليدعوهم.

و- يظهر من الأخبار حرص النبي الشديد على تبليغ الدعوة وعلى أن يسلم مثل هذا الكافر الذي هو من أشراف قريش.

ملاحظة مهمة في تلك الأخبار:

أنها لم تقل بأن النبي عبس في وجه الأعمى، ولا أنه استاء لمجيئه، ولا أنه تولى عن المجلس الذي كان فيه مع الكافر.

وليس في الأخبار السابقة ما أورده المفسرون، وإنما ذكرت مجرد إعراض النبي عن الأعمى انشغالا بدعوة رجل من أشراف قريش. وجعلت هذه الواقعة هي سبب نزول السورة لا أكثر، فلم تذكر توليا ولا عبوسا لأي طرف في المجلس.

وهنا يظهر أول موضع في الخلل عند المفسرين وهو أن الأخبار الصحيحة في هذه الواقعة لم تشر إلى عبوس، من أي طرف، ولا إلى التولي، فمن أين للمفسرين بهذه التفسير الغريب البعيد عن حقيقة الأخبار. فما إلا اعتماد المفسرين الأخبار الباطلة في تفسير بنية الضمائر.

أما الآيات: [١-١٠] فيظهر منها الآتي:

	الآيات	**مقاصدها**
المشهد الأول	١-٢	عبوس أحد الأشخاص في مجلس كان فيه الكافر والنبي بمجرد ظهور الأعمى. وتولي هذا الذي عبس عن المجلس، بسبب مجيء الأعمى
المشهد الثاني	٣-٤	**متابعة للمشهد السابق، وهو تعقيب للمولي عز وجل على ذلك الذي تولى:** بأن وجه الخطاب لرسوله، بعد تولي هذا العابس. يُعْلمه أن هذا المتولي المعرض لن يسلم ولا يتذكر ولا يرجى منه الخير.

	الآيات	مقاصدها
٥-١٠ **بيان منهج النبي في الدعوة وتصحيح المولى لهذا المنهج:**		
المشهد الثالث	٥-٧	تصدي النبي ﷺ لدعوة الذين لا يريدون الهداية، ليس على النبي حرج في عدم إيمان أمثال هؤلاء.
المشهد الرابع	٨-١٠	من منهج النبي ﷺ انشغاله عن دعوة المقبلين عليها، الساعين إليه، وتأخير تعليمهم.
المشهد الخامس	١١	رفع العبء عن النبي في الدعوة ما عليه في دعوته إلا التذكير للناس.

بعد هذه المقارنة يتبين لنا أن فارقا بين دلالة الأخبار الصحيحة، ودلالة الآيات، فهما يكمل أحدهما الآخر، فالأخبار لا تذكر عبوسا ولا توليا عن المجلس، لأن الرواة لم يشهدوا شيئا من أحداث الواقعة، لذلك تولى القرآن تكملة بيان الواقعة وما كان من أهم أحداثها التي لم يشهدها أحد، وهو أن الذي عبس، قد ترك المجلس الذي كان يدعوه فيه النبي وذهب عنه بسبب مجيء الأعمى إلى هذا المجلس.

ملاحظة مهمة:

إن الإعراض – الذي ورد في الأخبار الصحيحة- ليس معناه العبوس، ولا من معانيه العبوس، ولا يدل بأي حال من الأحوال على العبوس، ولا هو حالة من حالات العبوس، فالإعراض حركة البدن، والعبوس حركة الجبين، ومن ثم لا يصح أن نفسر إعراض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم الذي ورد في الآثار بأنه يقصد به معنى (عبس) الذي ورد في الآية. فاللغة لا تقول بهذا التفسير، ولا النقل. وفرق كبير من أن يذكر الخبر سبب النزول، وبين أن نفهم منه هذا التفسير الذي اشتهر بين المفسرين.

هذا كل ما أفادته الأخبار الصحيحة السابقة، لا تزيد عليه شيئا، أما ما جاء في تفسير هذه الآيات فما هو إلا خلط بين الصحيح والباطل من الأخبار، و(ظنون وأوهام ناشئة مما توهموا من التأويل، فوضعوا له قصة وخبرا)[1]، التقطها بعض المفسرين الأوائل وأكمل به واقعة لم يشهدها أحد من الصحابة، وسار على نهجهم كل من جاء بعدهم، وأوقعوا الأمة في حرج شديد.

فإذا عدنا إلى الآيات الكريمة نجد فيها جوانب متعددة كثيرة خصبة لهذا المشهد من جميع جوانبه، إذ تستحضر جميع الأطراف التي أسهمت في تشكيل الحدث، وهذا هو شأن البلاغة القرآنية المتفردة عن جميع بلاغة البشر، فعندما يتناول القرآن حادثة ما، فإنه يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويتناول الزمان والمكان والأشخاص كافرهم ومؤمنهم؛ ليبين حقيقة كل طرف، فهذه الآيات تناولت الموقف من جميع نواحيه، وعالجت الحادثة معالجة بطريقة فريدة، فهي تصف القادم بأنه أعمى، وأن الذي عبس تولى عن المجلس وهو الكافر، وذكرت مهمة النبي ﷺ في هذا المجلس هي الدعوة للإسلام، وبينت منهج النبي ﷺ في الدعوة قبل زمان هذه الآيات، وذكرت المنهج الأيسر والأصلح للدعوة فيما يستقبل من زمان الدعوة.

لذلك نعيد النظر في سبب النزول ونضعه على وجهه الصحيح، فنقول أن السبب الرئيس في نزول السورة هو الدفاع عن الذات المحمدية النبوية ضد أحد مشركي أهل مكة الذين يعنفون النبي في دعوته لهم وتكبرهم على ضعفاء المجتمع المكي، وتصحيح مسار الدعوة بصفة عامة.

إذًا كانت هذه الآيات المباركات دفاعا عن النبي ﷺ ورفعا لقدره عند ربه، وشدة غيرة ربه عليه، وتخفيفا لمشقة الدعوة عنه، لا أن تنقلب هذه الآيات إلى عتاب

---

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، اعتناء الدكتور عبيد الفراهي، دار الغرب، الطبعة ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، ٥٩٨/٢.

وحزن للحبيب ﷺ كلما تلا هذه الآيات. أو تلاها المسلم الذي يتصور هذا الموقف والحبيب يقطب جبينه في وجه أعمى، ثم يتولى عنه مدبرا معرضا عن إرشاده وهدايته، كيف يقبل المفسرون سامحهم الله أن يقع المسلم في مثل هذا الخيال؟!.

ثانيا: تحليل مرجعية ضمائر الآيات [١-١٠]:

وقد لعبت تحولات الأسلوب (الالتفات) في بنية الضمائر دورًا مهما في بيان إشكالية مرجعية الضمير في عتبة السورة، فجاءت في الآيات على النحو الآتي:

الآيتان: [١-٤]: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)}.

توزعت الضمائر في تلك الآيات على النحو الآتي:

ضمائر الغائب كلها في الآيات السابقة تنصرف إلى الكافر الذي كان مع النبي على النحو الآتي:

١- ضمير غائب مستتر:(عبس)

٢- ضمير غائب مستتر:(تولى):

وهذان الضميران ينصرفان إلى **الكافر**؛ وهو أسلوب قرآني معهود في الحديث عن المشركين بضمير الغائب، لأنه بالفعل انصرف وتولي عن النبي فصار وجوده كعدمه، أما خطاب القرآن للنبي بداية بضمير الغائب فلا وجود له في القرآن.

٣- ثم ضمير هاء الغَيبة بارز: (جاءه). يرجع إلى **الكافر أيضا** أي جاء الأعمى إلى مجلس الكافر لأن النبي هو الذي كان في مجلس الكافر يدعوه إلى الإيمان ويقرأ عليه القرآن كما كان من عادة النبي في الدعوة، ولعل الأعمى سأل عن النبي في داره فلم يجده فدُلّ على مكانه في مجلس مع أحد أشراف مكة، فجاء الأعمى إلى هذا المجلس الخاص بالكافر فعبس الكافر في وجه

النبي ﷺ ، ثم تركه، إذن كل ضمائر الغائب ترجع إلى الكافر، وهذا هو معهود خطاب القرآن مع المشركين.

٤- انتقلت الآيات إلى ضمير مخاطبة للنبي، كاف الخطاب للنبي (وما يدريك)، هنا بداية توجيه الخطاب للنبيﷺ بعد أن تولى عنه الكافر. **وهذا أسلوب الالتفات**، ثم ترجع الضمائر بصيغة الغائب إلى الكافر على النحو الآتي:

٥- ضمير هاء الغَيبة بارز في:(لعله). يرجع إلى الكافر.

٦- ثم ضمير غائب مستتر في: (يزكى) يرجع إلى الكافر أيضا، وليس الأعمى، كما ورد في تفسير الطبري والكشاف.

٧- ثم ضمير غائب مستتر في: (يذكر)، يرجع إلى الكافر.

٨- وأخيرا ضمير هاء الغَيبة بارز: (فتنفعه) متابعة لما سبق من إرجاعات ضمير الغائب إلى الكافر. ومن قواعد التفسير في الترجيح (توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد، أولى من تفريقها)[١]؛ لئلا يتنافر(النظم، ويتشعب المعنى، وليتسق السياق، ويُظهر قوة الإعجاز)[٢] والقرينة هنا في توحيد مرجعية ضمائر الغائب أن الآيات بنيت من مطلعها على بيان حقيقة هذا العابس في وجه النبي المتكبر على الفقراء ومجالستهم، أضف إليه معهود القرآن في مخاطبة الكفار بضمير الغائب. فبذلك تتضح حقيقة هذا الكافر، وتتعرى تماما للنبي ﷺ حتى لا يتحسر على فوات فرصة إيمانه.

ويؤيد هذا الإرجاع في ضمير الغائب ما جاء في تفسير الزمخشري، والفخر الرازي والقرطبي، والطبري: منها قول بعضهم: «وقيل: الضمير في (لعله) للكافر». وهذا التفسير يؤيد تأييدًا تامًّا إرجاع الضمير في (عبس وتولى) إلى

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين، ص ٦١٣.

(٢) انظر قواعد الترجيح المتعلقة بالنص القرآني في ضوء ترجيحات الرازي عبد الله عبد الرحمن الرومي، دار التدمرية السعودية، الطبعة ٢٠١٠م، ص ٤٢٧.

الكافر ويتسق الأسلوب والمعنى اتساقًا بليغًا مع معنى الآيات. ومما يؤيد ذلك التفسير أيضا تكرر فعل (يَزَّكَّى) ليؤدي لنا الربط بين المقصود في مطلع السورة هو نفسه المقصود بالتزكي في ختام المشهد، فيتجاوب الفعلان لتأكيد أن الضمائر الغائبة السابقة البارز منها، والمستتر كلها تتوجه إلى الكافر، الذي عبس وترك النبي ﷺ واستغنى عن الدعوة والهدى.

وبنهاية الآية (٤) ينتهى المشهد الأول من هذه السورة مجلس النبي مع الكافر ومجيء الأعمى، وما يتعلق به.

الآيات:[٥-١٠]: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)}

هذه الآيات تتناول **منهج النبي ﷺ بصفة عامة في الدعوة**؛ لأن هذه السورة نزلت في فترة مبكرة، وكان النبي يجهد نفسه في دعوة هؤلاء الكفار، ويحزن عليهم ألا يسلموا، وقد أفصح القرآن عن هذه الرغبة النبوية بعد ذلك في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف: ٦] {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣].

٩- ضمير غائب مستتر في: (استغنى) عن الهدى، يرجع إلى الكافر خاصة الذي تولى، وإلى كل مستغنٍ عامة عن دعوة النبيﷺ للإسلام، ومن هؤلاء هذا الكافر الذي تولى واستغنى عن مجلس النبي.

١٠- ضمير مخاطب بارز موجه إلى النبي في قوله: (فأنت).

١١- ضمير هاء الغَيبة بارز في: (له) للمستغني عن الهدى.

١٢- ضمير مخاطب للنبي مستتر في: (تصدى).

١٣- ضمير كاف الخطاب للنبي في: (وما عليك).

١٤- ضمير غائب مستتر في: (يزكى) بمعنى ألا يسلم هذا الكافر؛ كما ورد هذا التفسير عند الطبري.

ودور الضمائر هنا توضح منهج النبي الذي كان يسير عليه في الدعوة، وهو أنه يتصدى لأشراف مكة؛ لأنه كان يرى أن إسلامهم سيفيد الدعوة، لكن الحقيقة لن يسلموا، لذلك ترفع آية (٧) عنه الحرج، وأنه غير مسؤول عن هدايتهم.

١٥- ضمير كاف الخطاب للنبي في: (جاءك).

١٦- ضمير غائب مستتر في: (يسعى) يشمل الأعمى وغير الأعمى.

١٧- ضمير غائب بارز (وهو). وضمير غائب مستتر: (يخشى).

١٩- ضمير مخاطب بارز (أنت) موجه إلى النبي ﷺ في: (أنت).

٢٠- ضمير غائب بارز متصل: (عنه).

٢١-- ضمير مخاطب للنبي مستتر في: (تلهى).

وهكذا تكشف بنية الضمائر عن بيان المنهج الجديد للنبي في الدعوة، تطويرا لما كان عليه النبي ﷺ قبل نزول الآيات، ثم توجهه إلى منهج أعلى منه في تقديم الدعوة.

موضع التوجيه في الآيات السابقة:

بذلك يتضح لنا أنه لا يوجد عتاب في سورة عبس، بل هو توجيه لمنهج أفضل وأنسب في الدعوة وتخفيف من ثقل المهمة عن النبيﷺ في الدعوة. فمثل هذا التوجيه لا يندرج تحت أي نوع من أنواع العتاب، وبخاصة أن الآيات جاءت في معرض الدفاع عن النبي ﷺ وتوبيخ هذا الكافر المتولي. ومن ثَمّ ليس هنا ما يمكن أن نسميه عتابا الذي في قوله تعالى: {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)}؛ لأن الآية وصفت موقف النبي ﷺ الدعوة، وتوجهه إلى أن لا يشغل نفسه بمن لا خير فيه، ويتفرغ للذي يسعى إليه، أو يتابع الضعفاء الذين يسرعون للإسلام بمجرد دعوتهم. لذلك أرجح أن هذه السورة نزلت قبل سورة النجم وفيها يؤكد المنهج الذي أقرته سورة عبس وهي قوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩} [النجم: ٢٩] وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣)} [النجم: ٣٣]،

فهاتان الآيتان ترشدنا إلى أمرين مهمين؛ الأول: أنهما تؤيدان ما ذهبتُ إليه من الذي تولى هو الكافر وهو الوقت نفسه الذي عبس في وجه النبي قبل أن يتولى. الأمر الثاني؛ أن سورة النجم نزلت بعد سورة عبس وليس قبلها.

السياق اللغوي ومفاتيح ألفاظ السورة ودورها في فهمها:

(عبس): العبوس في اللغة: (عَبَسَ يَعْبِسُ: قَطَّبَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ. والتَّعَبُّسُ: التَّجَهُّم)[١]. وفي الوسيط: (عَبَسَ فلَان: جمع جلد مَا بَين عَيْنَيْهِ وَجلد جَبهته وتَجَهَّم)[٢]. للتعبير عن موقف الرفض أو الغضب.

سياق العبوس في القرآن:

ورد (عبس) في القرآن مرة أخرى بالصيغة نفسها التي هنا: وذلك في قوله تعالى: {ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} [المدثر: ٢١ – ٢٣] والذي عبس في المدثر هو الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ كما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ومُجَاهِدٍ)[٣]، وواضح هنا أن الحديث عن رجل عُرضت عليه آيات القرآن فلم يقبلها، ثم عبس أي (قطب وجهه فلما استعصى عليه ما يصف به القرآن ولم يجد مغمزا مقبولا)[٤]، (بسر): وهذا اللفظ مما أسيء تفسيره قديما وحديثا، حيث جعلوا دلالته مرادفة لدلالة عبس، ولكن صواب معنى هذا اللفظ؛ من (البَسْرُ: وهو الاستعجال بالشيء قبل أوانه)[٥]، ولذلك فإن صواب معنى بسر في هذا السياق؛ هو أن هذا الكافر استعجل في تكوين رأيه حول القرآن (قبل أن يحقق الأمر ويتهيأ

(١) لسان العرب: (عبس).

(٢) المعجم الوسيط.

(٣) تفسير الطبري ط هجر (٢٣/ ٤٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٠٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٢٢) .

لاستخلاص رأي صحيح .. {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [المدثر: ٢٤])[١].
وواضح أن سياق اللفظ خاص بالجو غير الإيماني. هو المشهد نفسه معنا؛ عبوس وإدبار واستكبار، ولا يوجد تفسير أعلى من الإحالة السياقية القرآنية في تفسير مشهد العبوس في سورة (عبس)، ومعلوم أن من قواعد الترجيح في تفسير متنازع فيه من القرآن هو؛ (حمل معاني كلام الله تعالى على الغالب من أسلوب القرآن، ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك)[٢].

أيضا العبوس لا يكون إلا بين اثنين مبصرين ليكون له دلالة مؤثرة، فلا يصلح أن يكون بين كفيفين، ولا من مبصر إلى كفيف؛ لأنه في مثل هذه الحالة يكون عبثا لا أثر له على الكفيف. فإذا نظرنا إلى ما ذهب إليه المفسرون من أن النبي ﷺ عبس في وجه الأعمى؛ تفسير لا عناج له؛ لأن الأعمى لن يرى وجه العابس، ولن يدرك مثل هذه الإشارة الصادرة من الوجه إلى الوجه والعينين، فإن كان الأعمى لا يرى هذه الإشارة، فيكون العبوس في وجهه ضربا من العبث لا يليق بأي أحد من عوام البشر، فما بالك بسيد الأنبياء ومعلم البشرية صاحب الأخلاق القرآنية، والأنبياء محرم عليهم الهمز واللمز والغمز، أو التضجر في مجال الدعوة.

وإذا كان الأمر كذلك فما حقيقة العبوس في الآية؟

حدث العبوس بالفعل، ولكن كان العبوس بين المبصرين اللذين كانا بالمجلس، فأنت أيها المسلم كيف تتوقع ممن يكون العبوس في هذا الموقف؟ يكون من الكافر إلى النبي، أم من النبي إلى الأعمى، ؟! ضع الإجابة بنفسك.

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد جبل، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ٢٠١٢م، (١/ ١٢٠).

(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين علي حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م ، ص: ١٧٢.

سياق (تَوَلَّى) في القرآن:

تَوَلَّى: مُشْتَقٌّ مِنَ التَّوْلِيَةِ وَهِيَ الْإِدْبَارُ وَالِانْصِرَافُ. وَالتَّوَلِّي: أَصْلُهُ تحوّل الذَّات عَن مَكَانِهَا[١]. وليس بمعنى أعرض، كما فسرها المفسرون، ترتب على هذا العبوس الرفض للدعوة الموجهة إليه من النبي، ثم ترك المجلس والتحول عنه.

قال أبو حيان: (وَإِذَا ذُكِرَ التَّوَلِّي غَيْرَ مُقَيَّدٍ فِي الْقُرْآنِ، فَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ أَنَّهُ اسْتِعَارَةٌ عَنْ عَدَمِ الدُّخُولِ فِي الْإِيمَانِ)[٢]. والذي استنبطه أبو حيان صحيح ودقيق وينطبق علينا هنا، إذ ذكر التولي غير مقيد بشيء مما يدلنا أنه بيان لإعراض هذا الكافر عن النبي ودعوته.

وإذا راجعنا سياقات لفظة (تولى) ودلالاتها في **السور المكية** وجدتها تؤيد هذه الدلالة، إذ جاءت في جميعها لتصف أحوال المشركين في الإعراض، اقرأ معي هذه الآيات:

١- {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه: ٤٧، ٤٨].

٢- {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧)} [المعارج: ١٦، ١٧].

٣- {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا } [النجم: ٢٩] .

٤- { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤)} النجم.

٥- {ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)} المدثر.

٦- { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) } القيامة.

٧- {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ} الغاشية.

٨- {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} الليل.

٩- {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)} العلق.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ١٠٤).

(٢) البحر المحيط، مركز هجر، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، (٢٣/ ٦٧٣) .

هذه بعض آيات القرآن تخاطب النبي وتتحدث عن سلوك بعض الكفار، وتفسر لنا من الذي (تولى). وأنت تلاحظ معي أن أبرز ما في سمات الخطاب القرآني عنهم هو استخدامه ضمير الغيبة، في وصف أفعالهم؛ لأنهم لا يستحقون الذكر الصريح، والخطاب المباشر، وإنما صرح القرآن مرة واحدة بوصف أحد هؤلاء الطغاة الذين آذوا رسول الله ﷺ وهو أبو لهب عمّ النبي ﷺ لأنه بالغ في أذي النبي ﷺ ومنع دعوة الله من التبليغ، عدا هذا الموضع كان القرآن يستخدم معهم أسلوب التجهيل على الرغم من ورود أسماء محددة في أسباب النُّزول. وهذا هو الأسلوب القرآني نفسه في آيات عبس.

قوله تعالى: (أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى):

قال الطبري: (لِأَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ أَنَّهُ كَانَ يُطَوِّلُ الْأَلِفَ وَيَمُدُّهَا مِنْ {أَنْ جَاءَهُ} فَيَقُولُ: (آنْ جَاءَهُ) وَكَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ كَانَ عِنْدَهُ: أَأَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى عَبَسَ وَتَوَلَّى؟)[1]

وقال أبو حيان: (أن جاءه: مفعول من أجله، أى: لأنْ جاءه. ويتعلق بـ(تولى) على مختار البصريين في الإعمال. وبـ(عبس) على مختار أهل الكوفة)[2]. على أي التأويلين، أن العبوس والتولي كانا لمجرد مجيء الأعمى لا من أجل أنه كان ينادى ويطلب، كما تخيل بعض المفسرين، بل كان العبوس والتولِّي بمجرد رؤية الأعمى قادم من بعيد؟ فحدوث العبوس والتولي بمجرد رؤية الأعمى وظهوره يناسب حال الكافر الذي كان يتحدث معه النبي ﷺ. ومحال في حق النبي ﷺ.

---

(١) تفسير الطبري ط هجر (٢٤/ ١٠٢).

(٢) البحر المحيط، تحقيق عبد الله التركي، ومركز هجر للبحوث والدراسات، القاهرة، الطبعة ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، ٢٣٦/٢٥ .

(جاءه): قال الراغب الأصفهاني مفرقا بين الإتيان والمجيء: (جاء يجيء مَجِيئا، والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمّ، لأنّ الإتيان مجيء بسهولة)[١]، وقد اختبر الدكتور فاضل السامرائي هذه المقولة باستعراض بعض سياقات ورودها في القرآن، ووجدها صحيحة فقال: (الذي استبان لي أن القرآن الكريم، يستعملُ المجيءَ لما فيه صعوبةٌ ومشقة، أو لما هو صعب وأشق مما تُستعمل له (أتى)[٢]، وأخذ يحلل نماذج متعددة للتدليل علي ذلك حتى قال: (فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الموقف في (جاء) ، وخِفَّةِ اللفظ وخفة الموقف في (أتى) والله أعلم)[٣]. وتابع أحد الباحثين استقراء الفرق بعد الفعلين: (جاء، وأتي)، فانتهي إلى تقرير بعض القواعد –إضافة إلى القاعدة السابقة– استقاها من سياقات ورودهما في القرآن، منها قوله: (استُعمل "أتى" في المواقف الهادئة، و"جاء" في المواقف الصاخبة)[٤]، ودلل على ذلك بعدد من الآيات القرآنية، وقال أيضا: (ورد "أتى" ورودا أكثريا في المواقف المتوقعة التي لا مفاجأة فيها، و"جاء" في المواقف غير المتوقعة، أي المباغتة والمفاجئة التي تحدث اضطرابا)[٥]، ودلل على ذلك أيضا بآيات كثيرة والغريب أنه لم يلتف أي منهما إلى آية سورة عبس، ولكن إذا نظرنا في الفعل (جاءه) هنا ينطبق عليه ما ذكره الراغب، والباحثان من بعده، لأن هذا المجيء كان ثقيلا على صدر الكافر، وكان غير متوقع من الكافر أن يتجرأ أحد

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩– ١٩٩٧م، ص: ٦٠.

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، الأردن، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، ص: ٩٧ .

(٣) السابق، ص: ١٠٤.

(٤) اصطفاء الفعل في الأسلوب القرآني، شادي صلاح محمود، حلب، سوريا، ١٤٣٢هـ – ٢٠١٠م، ص: ٤٩.

(٥) السابق، ص: ٥٣.

الضعفاء على المجيء إلى مجلسه، ومن ثم عبس هذا الكافر في وجه النبي وتولى عنه. وعبّر بلفظ (الأعمى): لدلالات متعددة منها والله أعلم:

- إنعامًا من الله في تحقير هذا الكافر وتجهيله؛ لأنه عبس في وجه النبى ﷺ بسبب مجيء الأعمى إليه في مجلسه.
- كما أن الأعمى جاء يطلب الهدى، وهذا البصير الكافر يتولى عنه.
- إشعارًا بما يناسب حاله من الرفق به، والإصغاء لما يقصده.
- فيه إشارة خفية من أن كفار قريش لا يرون في مثل هؤلاء إلا العمى.

سياق قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} في القرآن

ورد أسلوب: [وَمَا يُدْرِيكَ] في القرآن ثلاث مرات، مرتان في سياق السؤال عن موعد الساعة وهو غيب مطلق لا يعلمه إلا الله.

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣].

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [الشورى: ١٧].

والمرة الثالثة هنا في سياق أمر غيبي أيضا قياسا على الموضعين السابقين، لأنه ورد في سياق دعوة أحد كبار الكفر في مكة، وأنه لا يستطيع أحد أن يحدد موعدا لهدايته، ولا يمكن أن يتنبأ أحد بإسلامه، فتجاوب سياق الأسلوب هنا مع سياق علم الساعة، ولذلك قال الرّاغب الأصفهاني: « كل موضع ذُكر في القرآن: (وما أدراك) فقد عُقِّب ببيانه، نحو: (وما أدراك ما هية نارٌ حامية)... وكل موضع ذكر فيه: (وما يدريك)، لم يَعقِّبه بذلك، نحو: {وما يدريك لعله يزكَّى}»[1]. وكأن النبي أمّل في نفسه أن لو كثف دعوته لمثل هؤلاء فإنهم يسلمون. فجاء لفظ (ما يدريك) في هذا السياق، إشارة لنبيه ﷺ، أن يقطع رجاءه فيهم، وأن إيمانهم وتزكية نفوسهم بيد الله وحده، فلا تشغل نفسك بها، ولا تحزن عليهم، ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون.

(١) المفردات، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، والدار الشامية،ط٢/١٩٩٧م، ص ٣١٣ .

الضمير في قوله تعالى: (لَعَلَّهُ يَزَّكَّى): قال الزمخشري: (وقيل: الضمير في "لَعَلَّهُ" للكافر. يعنى أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام، أو يتذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول الحق، وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن)[١].

قال أبو حيان: «والظاهر مصب (يدريك) على جملة الترجي، فالمعنى: لا تدرى ما هو مترجى منه من تَزَكٍّ أو تذكر. وقيل: المعنى: وما يطلعك على أمره وعقبى حاله)[٢]. وهذا التفسير أيضًا يتناسب مع إرجاع ضمائر الغائب في (عبس وتولى، ولعله) جميعًا إلى الكافر. ويؤيده أيضا ما ذكره الطبري رواية عن (ابْن زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: {لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}: يُسْلِمُ. وعَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ: {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} يَقُولُ: وَأَيُّ شَيْءٍ عَلَيْكَ أَنْ لَا يَتَطَهَّرَ مِنْ كُفْرِهِ فَيُسْلِمَ؟)، وقال ابن الجوزي: (قوله عزّ وجلّ: وَما عَلَيْكَ أي: أي شيءٍ عليك في أن لا يُسْلِمَ مَنْ تدعوه إلى الإسلام؟ يعني: أنه ليس عليه إلّا البلاغ) [٣]. فهذه الأقوال المأثورة في تفسير الضمير تؤيد ما ذهبت إليه أن الذي عبس هو الكافر، وبنيت عليه بقية الضمائر.

قوله تعالى: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)} [عبس: ٥ – ١٠] هنا مشهد جديد انتقلت فيه الآيات إلى بيان منهج النبي في الدعوة. وفيها بيان وتصحيح لمهمة النبي في الدعوة، فإنه كان من قبل نزول هذه الآيات؛ يتصدى للمستغنين عن الهدى، وينشغل باله بهم شيئا ما عن الذين يسعون إلى الهدى، وليس في هذا التوجيه أي عتاب.

(يسعى) في مقابل (استغنى): يعنى جاء مسرعًا، ودلالة الإسراع هنا أنه راغب في معرفته لمنهج السماء ليتعلم ويزداد. وكلمة (أعمى ويسعى)، المعروف أن

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (٤/ ٧٠١) .

(٢) البحر المحيط، ٢٣٧/٢٥.

(٣) زاد المسير.

الأعمى يمشي يتحسس الطريق، أما وقد كانت حالته السعي إلى النبي ﷺ والهدى، فكأنَّ طبيعة ما عنده من الخشوع والشوق إلى سماع النبي ﷺ أوجدت عنده طاقة جعلته يسعى. وحُذف مفعول (يخشى) ؛ ليتسع عطاء الفعل، فتفتش أنت عن المفعول. قال عبد القاهر الجرجاني مبينا سر عدم ذكر المفعول في بعض المواضع: (لتتوفَّر العنايةُ على إثباتِ الفعل لفاعلِه ولا يَدخلَها شَوْبٌ)[1]، وأخذ يدلل بالشواهد على بلاغة هذا الحذف حتى قال: (وليس لِنَتائجِ هذا الحذفِ، أعني حَذْفَ المفعولِ، نهايةٌ، فإنه طريقٌ إلى ضروبٍ من الصَّنْعة، وإلى لطائف لا تُحصى)[2].

قوله: (كلا): حرف يفيد الردع والزجر والاستنكار لما بدر من هذا الكافر مع النبي. وهي بذلك تربط بين الآيات [١-١٠] وهذا المشهد الذي يكشف عن دور النبي بأنه مذكر لمن أراد التذكرة، وأنها صحف علوية مطهرة.

ثم يجيء التحول الأسلوبي في السورة من مشهد تنزيه القرآني إلى مشهد خلق الإنسان، وقد استخدم (ريفاتير) اصطلاح "السياق الأسلوبي" لقراءة التحولات الأسلوبية في النص أو الانتقال من موضوع إلى آخر، ويرى أن هذه التحولات تؤدي إلى ما أسماه بالتقوية الأسلوبية التي تحدث (نتيجة إدماج عنصر غير متوقع ضمن نموذج ما، فهي تفترض أثَرَ قطيعةٍ يُغيِّر السياق، وهو ما يترتب عنه اختلاف جوهري بين القبول الجاري للسياق وبين السياق الأسلوبي). ثم يعرف مصطلح السياق الأسلوبي بأنه: (نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع)، ويرى أن مثل هذا التداخل في الأسلوب يحدث تناقضا، لكنه في صالح النص ينمّ عن قِيم جمالية، لأن (التناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه

(١) دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بمصر، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص: ١٦١.

(٢) السابق، ص: ١٦٣.

الأسلوبي ولا ينبغي أن يؤول القطع مبدأ للتفكيك، وتكمن القيمة الأسلوبية للتناقض في نسق العلاقات الذي يعمل [هذا التناقض نفسه] على إقامته بين عنصرين متصادمين، ولن ينتُجَ أيٌّ أثر دون اجتماع هذين العنصرين في متوالية واحدة)[١]، وهذا ما يمكن أن نصف به التحولات الأسلوبية القرآنية في هذه السورة التي تتضمن عدة مشاهد متباينة، فهي تنتقل من مشهد إلى مشهد غير السابق حتى تنهي مشاهد السورة بيوم القيامة، على أننا لا نقول بمصطلح **التناقض**؛ لأنه ليس ثمة تناقض في النص القرآني، بل هو **المقصود به هنا المفارقة بين الأسلوب والأسلوب، والمشهد والمشهد أو** التحول الأسلوبي أو الانتقال من مشهد إلى آخر لتُستكمل مقاصد السورة، و(ليجدد زخما دلاليا في التنقل في الخطاب من أصل إلى أصل)[٢]، وليكون منبها بلاغيا يستدعي التأني والتدبر، وإعمال الفكر لمعرفة مقاصده في السورة.

هذا التحول بهذا المشهد يتجاوب مع المشهد الأول في مطلع السورة وهو قوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣} .

قوله: (قُتِلَ) ورد هذا الفعل بهذه الصيغة خمس مرات في سور المفصل منها هذا الموضع ، ومرتين في المدثر: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)} [المدثر: ١٨ – ٢٣] {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} [البروج: ٤] { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات: ١٠].

---

(١) معايير تحليل الأسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة حميد لحميداني، منشورات دارسات سال، المغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ص: ٥٦.

(٢) العدول في السياق القرآني، حسن حسين فياض، بحث بدون دار نشر أو مجلة، ص: ٨.

وجميع سياقات الورود للفعل (**قُتل**) كانت واضحة أنها في مجال الدعاء على الكافر، ولذلك جاء عَن مُجَاهِد قَوله: (مَا كَانَ فِي الْقُرْآن قتل الإنسان إِنَّمَا عني بِهِ الْكَافِر) [(١)]. لكن الموضع الذي معنا لم يكن صريحا في تخصيصه بالكافر؛ لأنه متصل بما ذُكر بعده من قدرة الله على الخلق والإماتة، ثم تبعه مشهد آخر ذكر منن الله تعالى التي تعم جميع الخلق، لذلك ترددت أقوال المفسرين فيه ما بين أن المقصود عموم الإنسان، أو أن المقصود بها الكافر بصفة خاصة، فابن قتيبة جعله من (باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه، من ذلك الدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع: كقول الله عز وجل: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) [الذاريات: ١٠] ، وقُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (١٧) [عبس: ١٧])[(٢)].

وقال ابن عطية: (وقوله تعالى: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ دعاء على اسم الجنس وهو عموم يراد به الخصوص، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى قُتِلَ أي هو أهل أن يدعى عليه بهذا)[(٣)].

وقال ابن عاشور: (استئناف ابتدائي نشأ عن ذكر من استغنى فإنه أريد به معين واحد أو أكثر، وذلك يبينه ما وقع من الكلام الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين صناديد المشركين في المجلس الذي دخل فيه ابن أم مكتوم. ... وفعل قتل فلان أصله دعاء عليه بالقتل. والمفسرون الأولون جعلوا: قتل الإنسان أنه لعن)... والدعاء بالسوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد... فقوله: ما أكفره تعجيب من كفر جنس الإنسان أو شدة كفره وإن كان القليل منه غير

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الله التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ٢٤٦/١٥.

(٢) تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م (ص: ٢٧٥).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد إبراهيم الأنصاري وآخرين، وزارة الأوقاف قطر، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م، (٨/ ٥٣٩).

كافر.. ويجوز أن يكون تعريف الإنسان تعريف العهد لشخص معين من الإنسان يعينه خبر سبب النزول..) إلى غير ذلك من التردد بين المقصود العام أو الخاص... وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية).

وفي قوله : {أكفره}. وجهان؛ أحدهما : التعجب من كفره ، مع إحسان الله إليه، وأياديه عنده. والآخر: أي: أيُّ شيء أكفره ؟)[١].

ونخلص من هذه التفسيرات والتعليلات، إلى أن ورود هذا الفعل في السور المكية في سياق الدعاء على الكافرين يعد قرينة قوية في أن المقصود به هنا أيضا الكافر، وهو إشارة سيميائية تداولية إلى الذي عبس وتولى عن مجلس النبي، ويؤيد هذه الدلالة ضمائر الغائب التي تخص الكافر قوله (لا يزكي) (استغنى)، (ما أكفره) وغيرها من الأفعال التداولية التي تنادي بأن الذي عبس هو المقصود بتلك الأفعال؛ لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرة الله على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح). وهذا التعليل الأخير من ابن عاشور من قوة كفر هذا الكافر وهو في هذا يتجاوب مع قوله تعالى في أول السورة: (قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ) التي جاءت في سياق الأمر الغيبي وهو أنه لا يستطيع أحد أن يعرف أن هذا الكافر سوف يؤمن أم لا، ولا يمكن أن نتنبأ بموعد هدايته.

ثم يحدث تحولا أسلوبيا آخر في السورة هو مشهد ذكر نعم الله تعالى المتعددة على الإنسان بصفة عامة، ويبدأ بقوله: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)} وهذه الآية تربط بين المشهد السابق والمشهد التالي بعده، أشار أبو السعود إلى وجه منها قوله: (وقيلَ كلاَّ بمَعْنى حقاً فيتعلقُ بما بعدَهُ أي حقّاً لم يعملْ بِما أمرَهُ به فَلْيَنظُرِ

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١١٠).

الإنسان إلى طَعَامِهِ شروعٌ في تعدادِ النعمِ المتعلقةِ ببقائِه بعد تفصيلِ النعمِ المتعلقةِ بحدوثِه أي فلينظرْ إلى طعامِه الذي عليه يدورُ أمرُ معاشِهِ كيفَ دبرنَاهُ)[1]، وأشار ابن عاشور إلى وجه آخر فقال:(فالوجه في موقع كلا هنا أنه يجوز أن تكون زجرا عما يفهم من قوله: (ثم إذا شاء أنشره) المكنى به عن فساد استدلالهم).

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٢٤ – ٣١] قال ابن عاشور: (وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله وكان الانتقال من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل ... إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخا للاستدلال...).

لكني أتوقف عند قوله تعالى: {**أنبتنا... وأبًّا**}: الأبُّ؛ من الألفاظ التي اضطرب تفسيرها عند المفسرين، وصواب معناه هنا؛ من: أبَّ للسير أَبَا: تهَيَّأ وتَجهَّز. ومنه يكون معنى: الأبُّ من النبات أو النبات الأَبُّ: المُتَهَيِّيءُ للرَعْي والقَطْعِ والجزّ. وقد ورد هذا اللفظ مرة واحدة القرآن وهو يتجاوب هنا مع سياق المشهد الأول الذي بنيت عليه مقاصد السورة، وهو التجهز للتولى والذهاب عن مجلس النبي.

وكذلك مشهد يوم القيامة يتجاوب مع مطلع السورة، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) } [عبس: ٣٣ – ٣٨].

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار المصطفى للطباعة، ٢٠١١م، ٤٠١/٦.

ويتوقف كل من د/ محمد الخضري و د/ فاضل السامرائي عند هذا المشهد من يوم القيامة ويقارناه بمشهد آخر شبيه ورد في سورة المعارج في قوله تعالى: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)} [المعارج: ١١ – ١٤]: إذ يرى د محمد الخضري أن الترتيب جاء في سورة عبس على سبيل (الترقي من الأدنى إلى الأعلى، إذا كان الغرض رصد حركة النفس ومواكبة تطورها حتى تستقر على آخر ما ترقى إليه... فكان الترقي من الأخ إلى أن يصل إلى الابن أقدر على تصوير حركة النفس وتتابع أطوارها في هذا الموقف) [١]. أما الموقف في سورة المعارج، فإنه يصور محاولة يائسة في أعماق نفس المجرم، وهو يتقلب في العذاب، وقد اختل تفكيره وشعوره حتى أصبح يتمنى ما يعلم أنه عين المستحيل، فيقدم على افتداء نفسه بمن كان بالأمس يفتديهم بنفسه[٢].

أما د. فاضل فينظر إلى المشهد من زاوية أخرى قريبة مع زيادة بيان، فيقول إن (المقام في عبس مقام الفرار والهرب والإنسان يفر من الأباعد أولا، ثم ينتهي بألصق الناس به وأقربهم إليه فيكونون آخر من يفر منهم... وهكذا رتب المذكورين. أما السياق في سورة المعارج فهو مختلف عما في عبس ذلك أنه مشهد من مشاهد العذاب الذي لا يطاق، وجيء بالمجرم ليقذف به في هذا الجحيم، ولذلك يود النجاة بكل سبيل، ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بابنه...) [٣]. ويزيد د/ السامرائي المشهد وضوحا فيقف عند اختيار القرآن في مشهد الفرار يوم القيامة كلمة: "المرء" ولم يقل "الإنسان" كما قال قبل هذه الآيات: {قُتِلَ الإنسان}

---

(١) الواو ومواقعها في النظم القرآني، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ٢٠١٥م، ص١٧٩-١٨٠.

(٢) انظر السابق باختصار، ص١٧٩-١٨٠.

(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، دار عمار – الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، ص: ١٩٤. بتصرف.

وقال: {فَلْيَنظُرِ الإنسان}، (ذلك أن الأصل في كلمة (المرء) أن تطلق على الرجل، وقد تُؤنَّثُ هذه الكلمة فيقال: (المرأة) وجَمْعُ المرء الرجال من غير لفظه، وقد تطلق على الإنسان أيضاً. فاختيار (المرء) ههنا أوفق من (الإنسان) ذلك أنه ذكر الفرار من الصاحبة، وهي الزوجة فقال: {وصاحبته وَبَنِيهِ} فناسب ههنا ذكر (المرء) لأن (الإنسان) كلمة تشمل الذكر والأنثى، في حين أن الفارّ من الصاحبة هو الرجل. ثم إن اختيار كلمة (المرء) أوفق لسبب آخر ذلك أن مشهد الفرار يوم القيامة لا يختص بالإنسان، بل هو عام يشمل رجال الثقلين من الجن والإنس)[1]، فهذه الدقة القرآنية الرائعة في اختيار اللفظ المناسب لسياق بقية ألفاظ السورة لهو سر من أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن.

قد أحسن كل واحد منهما في البيان عن سر من أسرار القرآن جزاهما الله كل خير، لكن الذي فاتهما في تكملة بيان هذا المشهدين هو ربط كل مشهد بسياق السورة أو ربط كل مشهد بمطلع كل سورة، فما قاله د السامرائي حقا في وصف مشهد الفرار، هو ما يناسب مشهد التولي عن سماع القرآن والهدي من رسول الله في الدنيا، فجاء مطلع سورة عبس يصور الذين يتولون عن سماع القرآن واتباع الهدى فكان اختيار القرآن اسمًا ليوم القيامة في هذه السورة يناسب مطلعها وهو اسم (الصاخة وهي(صيحة شديدة من صيحات الإنسان تصخ الأسماع، أي تصمها)[2]. وهذا الاسم يتجاوب مع مشهد صم الآذان عن الهدى في الدنيا. وكذلك مشهد التولي في الدنيا عن الهدى يقابله مشهد الفرار يوم القيامة أو (سياقُ الفرار والهرب).

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، دار عمار – الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، ص: ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٣٤.

ومشهد العبوس في وجه النبي في الدنيا يقابله في الآخرة {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تصوير لمشهد اغبرار الوجه، والمراد أن وجوه الكفار معفرة بالغبار إهانة لهم. وترهقها أي: تغشاها- القترة: بفتحتين شبه دخان يغشى الوجه من الكرب والغم.

ويجيء مشهد الذين كانوا يسعون إلى الهدي وسماع القرآن في الدنيا بأن جزاءهم في الآخرة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)}.

وجاء ختام السورة مطابقا لمطلعها ومتجاوبا معها وذلك قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) تتجاوب هذه الآية مع الكافر الذي تولى عن مجلس النبي في أول السورة وهكذا اتضح لنا مدى (تضافر العلاقات التماسكية الدلالية واللفظية في السورة مع السياق في تحقيق التماسك النصي، ورأينا أن السورة تحتوي على علاقات داخلية وأخرى خارجية مرتبطة بالسياق)[1].

قراء واقعة العبوس في ضوء منهج الخطاب القرآنِي للنبي ﷺ:

لو نظرنا في منهج الخطاب القرآنِي للنبي وهو مطلب مهم جدا في السياق القرآني، لوجدناه يختلف تماما عن الخطاب الذي ورد في سورة عبس، والقاعدة المعروفة في علم التفسير: (القرآن يفسر بعضه بعضا).

راجع جميع مواضع الخطاب القرآني لرسول الله ﷺ سواء كان عتابا أو توجيها أو تشريعا؛ لا تجد موضعا واحدا من آيات الخطاب القرآني هذه تبدأ خطاب النبي ﷺ بضمير الغائب، ثم تتوجه إليه بعد ذلك بضمير الخطاب، مثل هذا الأسلوب لم يرد في القرآن مع النبي ﷺ أيا كان الموقف الذي تعالجه الآيات، واقرأ معي بعض آيات الخطاب القرآني للنبي ﷺ وقارن وتدبر:

١- {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (١٢٨) } آل عمران.

(١) انظر علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي (بتصرف)، دار قباء، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ١٠٧/١.

٢- {يَا أَيُّهَا الرسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧} المائدة.

٣- {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} الأنعام.

٤- {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)} التوبة.

٥- {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ (١٢)} هود.

٦- {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)} [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٧- {يَا أَيُّهَا النبي اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ(١)}الأحزاب.

٨- {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} الأحزاب.

٩- {يَا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ(١)} التحريم.

هذه بعض آيات الخطاب القرآني للنبي ﷺ ليس فيها، ولا في غيرها من الآيات ما بدأ فيه القرآن بضمير الغائب، وهو يقصد خطاب الذات المحمدية. فلماذا يخالف القرآن معهوده في خطاب النبي في سورة عبس، فيخاطبه بضمير الغائب، ثم يعود إليه بضمير الخطاب؟ مما يرجح ترجيحا قويا أن المقصود بضمائر الغائب في سورة عبس هو شخص آخر غير رسول الله ﷺ؛ لأنه بعد أن عبس، تولى أي ترك المجلس الذي كان فيه النبي ﷺ.

لذلك نتساءل على طريقة ما هو معهود من تفكير الإنسان الطبيعي الفطري: فنقول: لو كان فعلا الذي عبس هو النبي كما يقولون! فهل يستحي المولى من نبيه ﷺ أن يواجهه بفعل صدر عنه؟! والله لا يستحيي من الحق؛ لأنه لو كان النبي هو الذي عبس لتغير الخطاب بما يناسب الموقف ولكن حاشا وكلا أن يكون النبيﷺ هو العابس أو هو المخاطب بفعل عبس وتولى. وقد واجهه المولي في آيات أخرى بما هو أشد من ذلك راجع الآيات السابقة التي كان فيها الخطاب صريحا وموجها توجيها واضحا وصريحا، فلماذا تخلى القرآن عن منهجه في خطاب النبي ﷺ وخاطبه بأسلوب لا يتفق مع المعهود من الخطاب القرآني، إذا كان حقا أن الذي عبس هو النبي ﷺ. وهذه قاعدة في الترجيح أعملها المفسرون في مواطن عديدة(١).

قالوا لك: فعل القرآن ذلك إكراما للنبي ﷺ لأنه أمر شديد أن يواجهه بهذا الفعل.

فإن قلت : إذا كانوا يرون أن العبوس خلق مكروه، يأبى القرآن أن يصف به حبيبه. فكيف رجعوا ينفون هذه الكراهة عن فعل العبوس، وأنه شيء طبعيي، وليس فيه منقصة أو عيب. ثم رجعوا فغالطوا أنفسهم، وتعللوا بما تعلل به المفسرون من قبل، ولله الأمر من قبل ومن بعد...

ولكن من خلال السياق لأسلوب القرآن في خطاب النبي ﷺ، وجدنا أن أسلوب التجهيل لم يرد في القرآن ولو مرة واحدة مع رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يناسب الذات النبوية، وأن الواقعة لا تناسب الأخلاق الربانية التي فطره الله عليها.

وفي هذا التفسير نتخلص من جميع التأويلات الفاسدة، والظنون الكاذبة، ونبرئ نبينا مما برأه الله منه، ولا يضيرنا ولا يضير أي عاقل أن نقول له إن الذي **عبس هو الكافر**.

---

(١) انظر كتاب قواعد الترجيح ص ١٧٢.

وبعد أن بينت محاور السورة، أعود إلى بيان جانب تاريخي آخر يؤكد ما ذهبت إليه في تفسير مرجعية الضمائر، وذلك الجانب هو تاريخية الأخلاق المحمدية قبل البعثة، وبعدها.

السياق التاريخي لأخلاق النبي قبل البعثة:

أ- اطراد الذات المحمدية

هذه قاعدة مهمة في حياة الأشخاص العظماء الأسوياء، أشار إليه المفكر الجزائري مالك بن نبي، فيقول: (ونحن نجد في تحفظ التاريخ في هذه النقطة برهاناً على أن السيرة المتهمة أحياناً بالمبالغة- على العكس من ذلك- على جانب كامل من التحوط والحذر، عندما تنعدم لديها التفاصيل التاريخية. ونحن مضطرون لنقص هذه التفاصيل لدينا أن نلجأ إلى المراجع والوثائق النفسية التي يقدمها القرآن، يدفعنا إلى ذلك **اطراد ذات النبي**، وتشابه تصرفاتها خلال مراحل حياته جميعاً، منذ مشهد زواجه الذي أتاح لنا أن نجمع بعض المعارف الموضوعية عن تلكم (الذات)...

والواقع أننا نعلم فيما يتصل بالمرحلة القرآنية كل التفاصيل، حتى التافه منها عن حياته الزوجية، بفضل هذه السيرة التي كانت صامتة منذ هنيهة، فمن الممكن أن تتجلى الخطوط الأساسية لعزلته، من مراجع حياته اللاحقة. والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه هو الذي أشار فيما بعد إلى طريقته في استخدام وقته، فهو يقول في حديث له: (وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ

يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ)[١].

فإذا نحن قررنا **اطراد الذات المحمدية**، فها هو ذا برنامج الحياة المرسوم الذي يجب أن يتبعه، ولا سيما في مرحلة عزلته. وفضلاً عن ذلك، فإن العادات تثبت خاصة لدى المراهق لكي تنعكس على جميع حياته. وكذلك الحال على ما نعتقد فيما يخص النبي، كما تدل عليه ملاحظة زوجه عائشة حين أثارها الاهتمام بصحته، من قيامه الطويل بالليل في صلاة النافلة ، لقد كانت حقاً عادة ثابتة عند النبي منذ زمان عزلته. وعليه، فإذا كان النبي يخصص جانباً كبيراً من وقته للصلاة، بينما تلح عليه هموم التفاصيل المادية لرسالته، فلقد كان عنده من الفراغ ما يسمح له بالاعتكاف عندما لم يكن لديه ما يشغله من تفاصيل الحياة المادية والعامة)[٢].

ويؤيد هذه الملاحظة الفذة من المفكر مالك بن نبي ما جاء من وصف هذا الخلق العظيم على لسان السيدة خديجة رضي الله عنها قبل البعثة، عندما قالت له: **(كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)**.

ومما جاء في شرح: (كلا) معناها النفي والإبعاد، (يُخْزيك) وفي رواية (يَحْزُنك) كلاهما قد استبعدته رضوان الله عليها من أن يحدث ضرر لزوجها النبى ﷺ واستدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدًا بأمر استقرائي، وصفته بأصول مكارم الأخلاق عنده؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب، أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقلّ بأمره، أو من لا يستقلّ، وذلك كلّه مجموع فيما

---

(١) الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، دار الفكر، سورية الطبعة:٤، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ ص: ١٢٠.

(٢) انظر صحيح ابن حبان - (٢/ ٧٨).

وصفته به[1]. فهذه بعض صفات النبي ﷺ قبل البعثة، ونتبين منها أنه رصد من حياته ووقته وماله للضعفاء والمساكين والمحتاجين يعينهم على نوائب الحق، بلا تضجر أو ملل أو عبوس، فكيف تتغير مثل هذه الصفات بعد البعثة واصطفاء الله له.

ومن صفات النبي ﷺ التي كانت بارزة واضحة لمن يراه من أول وهلة البشاشة والسرور يعرفها في وجهه من يراه من قريب، ولذلك وصفته السيدة الفاضلة أم معبد رضي الله عنها حين مرّ بها النبي ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة، فقالت: (مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ)[2]. هذه السيدة الأعرابية أدركت هذه الصفة أنها من صفاته الثابتة لأول وهلة رأت فيها النبي. والذين اطلعوا على صفاته في الكتاب والسنة والسيرة لم يلتفتوا إليها وهو يفسرون سورة عبس.

ب- أخلاق النبي ﷺ في القرآن:

سئلت السيدة عَائِشَةَ، عن خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)[3]، والقرآن العظيم يؤكد تلك المعاني في أخلاق النبوة، ويشير في عدة مواضع إلى طهارة أخلاق النبوة من كل آثار الجاهلية، من تلك الآيات:

أ- {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)} القلم.

ب- {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} التوبة.

ت- {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١٥٩)} آل عمران.

---

(١) انظر فتح البارى (١/ ٢٢)، وعمدة القارى ١/٥٦-٥٧.

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ط دار التأصيل، ٥/١٤٩.

(٣) مسند أحمد ط الرسالة (٤١/ ١٤٨).

وقال تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ } [الضحى: ٦ – ١١].

وقال تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) } [الشرح].

وهو القائل (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

والسيرة النبوية والأحاديث تثبت أن صدره الشريف شُقّ قبل البعثة غير مرة وطُهّر من شوائب الجاهلية، وآثارها، ومن أي حظ للشيطان أو للنفس منها ما جاء في أحاديث المعراج المتفق عليها من ذلك قوله:،(احْتَمَلُوهُ، فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ، فَتَوَلاهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ، فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ، حَتَّى فَرَجَ عَنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ، تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ ثُمَّ أَطْبَقَهُ)، تأمل العناية بهذا الأمر في التطهير وحشو صدره. وكذلك كان الشق في صغره وهو عند حليمة، ولذلك أتعجب حقا من المفسرين كيف لم يستحضروا هذه الأخلاق والمشاهد قبل البعثة وبعدها وهم يتعاملون مع هذه السورة؟!

وكيف بعد هذا الوصف العظيم للخلق النبوى، يجيء على خاطر مسلم أو حتى غير مسلم، أن يتخيل مثل هذا الفعل أن يصدر عن النبى ﷺ أن يعبس ثم يتولى...! ويعبس في وجه أعمى لا يبصر..!! فأي فائدة في العبس إذن؟! ! ثم يتولى.. إلى أين؟! يتولى عن من؟ وإلى من... ؟!

هذا الخلق لا يتناسب مع أخلاق أواسط الناس فكيف نصف به أخلاق النبوة؟!

لو أردنا أن نتحدث عن أخلاق رسول الله ﷺ فما وسعتنا مجلدات ضخام، ولكن اقرأ على سبيل المثال الدراسة القيمة للدكتور أحمد عبد العزيز عن أخلاق النبيﷺ، انتهى في نهاية كتابه إلى حقائق ونتائج كثيرة، من أهمها:

١- أن عظمة أخلاق رسول الله ﷺ كانت معلومة منذ شب وترعرع، حيث أدبه ربه، ونشأ على مكارم الأخلاق لا يرضى عنها بديلا.

٢- أن بعثته واصطفاؤه بالنبوة والرسالة، زادت أخلاقه العظيمة كمالا ورسوخا، وتأسيسا، وتفصيلا.

٣- أنه كان يترجم القرآن العظيم بسلوكه في باطنه وظاهره، وأقواله، وأفعاله، وأحواله، وأن سلوكه كله كان مرآة لعظمة القرآن كله.

٤- توازن أخلاقه بحيث كانت جميعها كأنها في قالب واحد تتعاون ولا تتناقض في ذاته وأفعاله ﷺ.

٥- ثبات أخلاقه ﷺ ثباتا راسخا مدة حياته، بحيث لم يحصل منه ما يناقض أخلاقه العظيمة في أي حال من الأحوال)[١]. واقرأ موسوعة نضرة في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصادرة عن دار الوسيلة في عشر مجلدات.

٦- أخلاق الأنبياء بصفة عامة، وأخلاق الحبيب بصفة خاصة لا تقبل التفاوت أو المزايدة، ولا تقبل الاضطراب ولا التغير، فهم صفوة الله من خلقه. وهنا تتأكد قاعدة مهمة من قواعد الترجيح في التفسير وتقدم على كثير من قواعد الترجيح وهي: (القول الذي يعظم مقام النبوة، ولا ينسب إليها ما لا يليق بها أولى بتفسير الآية). وأيضا: (كلُّ قولٍ طعنَ في عصمةِ الأنبياءِ، ومقامِ الرسالةِ فهو مردودٌ)[٢]. لأن القرآن العظيم عظّم مقام النبوة ورفعه فوق كل مقام.

---

(١) انظر كتابه أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة: ١٤٧٠.

(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين، ص: ٣٢٨ .

أسلوب النبي في الدعوة في ضوء السياق التاريخي:

منذ نزول قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} والرسول ﷺ لم يتوان في تبليغ الدعوة جهرا إلى جميع العرب بادئا بقومه وعشيرته، حتى اشتهر أمر الدعوة وعرف أخبارها القاصي والداني من العرب فكان يذهب إلى مجالس أشراف مكة، ويدعوهم ويلح عليهم ليدعوهم، لكن قريشا كانت في بداية الدعوة لا تعبأ بما يدعوهم النبي إليه، وكانوا يقولون: {لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ } [الأحقاف: ١١] ولكن بعد ظهور نشاط النبيﷺ في الدعوة داخل مكة وخارجها، ودخول الكثيرين من الفقراء تحت راية الإسلام، بدا لبعض سادات قريش أن يكون لهم مجلس خاص مع النبي لا يوجد فيه الضعفاء والعبيد الذين أسلموا، ليستمعوا إلى دعوته لعلهم يقتنعوا بها، ومن الأدلة على طلب أعيان قريش مجالس خاصة بهم؛ ما أخرجه مسلم في صحيحه: (عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: " كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا،...).

وفي إحدى مجالس النبي ﷺ الدعوية مع بعض زعماء قريش، جاء رجل غير مبصر إلى هذا المجلس الذي يضم النبي ﷺ والكافر، فعدّ الكافر أن هذا مخالفة لما كان قد طلبه من النبي ﷺ من قبل، فما كان منه إلا أن **عبس في وجه النبي ﷺ وقطب جبينه**، ثم تولَّى هذا الكافر عن مجلسه مع النبي ﷺ وتركه تأنيبا له.

إذًا لم يعبس الكافر هنا في وجه الأعمى؛ لأن مثل هذا العبوس لا يؤدي النتيجة المرجوة منه، بل يكون من العبث إن فعل مثل ذلك، كما أن الأعمى ليس هو المعنيّ لدى الكافر، وإنما العبس كان موجها إلى الذي كان معه في المجلس. ولعل تولي هذا الرجل ترك أثرا في نفس النبي ﷺ لضياع فرصة إيمانه؛ لأن النبي ﷺ ظن أن هذا الكافر كان على وشك الإيمان، فجاء القرآن الكريم يبين للرسول

ﷺ حقيقة هذا الرجل وأمثاله حتى لا يحزن عليهم؛ وقد حكى المولى تعالى مثل هذا الحزن على عدم إيمان طائفة من أهل مكة في مواطن متعددة من التنزيل المكي، منها قوله تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]: وقال تعالى:

وبعد هذا التحليل للأخبار والسورة، اتضح لنا أنه ليست هناك قرينة سواء كانت لفظية أو لغوية أو تاريخية، تقتضي توجيه صدور العبوس من النبيﷺ.

وماذا يضير المسلم أن نقول له: إن الذي عبس هو الكافر، وخاصة أن جميع الدلائل الأخلاقية والقرآنية والتاريخية واللغوية تدلنا على ذلك بوضوح واطمئنان؟!

وأرجح أن سر تعلّق الناس بذلك التفسير هو الإلف الزماني الذي ركنت إليه عقولهم طوال هذه القرون لا أكثر، وخوفهم أن نقول: أخطأ المفسرون.

ولكني أتبرأ مما ذهب إليه المفسرون في هذه الآيات قديما وحديثا،

وما ذكرته من هذا التحليل لا يخرج عن منهج السلف في فهم النص القرآني، وليس عيبا ولا تجرؤًا مِنّا؛ أن نقول: أخطأ المفسرون في تفسيرهم، ولا يعد ذلك انتقاصا لأحد منهم، بل إننا ننصفهم عندما نرد الحق إلى نصابه، وقد خطأهم ابن العربي من قبل ووصفهم بالجهل في هذا الموضع: (وأما قول علمائنا: إنه الوليد بن المغيرة. وقال آخرون: إنه أمية بن خلف، فهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين؛ وذلك أن أمية والوليد كانا بمكة، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ...)[1].

على الرغم من خطأ ابن العربي وتسرعه في الفهم والحكم، وعدم تحقيقه للواقعة، لكن هذه المقولة تعد شاهدا جيدا فيما بصدد البيان عنه، وموضع الشاهد لدينا هنا؛ في أنه لم يتردد في وصف أقوالهم بالبطلان، واتهام المفسرين بالجهل لإدخالهم ابن مكتوم في الخبر ظنا منه أنه مدني.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية: (٤/ ٣٦٣).

وهذا يعني أن من منهج علمائنا السلف إحقاق الحق متى تبين لهم وجه الصواب، ولا ينظرون بعد ذلك إلى شيء بعده. أما أن نقدس الأشخاص أو الآراء لأنها صدرت عن فلان أو فلان أيا كانت درجة صحتها، فهذا ليس من منهج الإسلام، ولا من منهج السلف أنفسهم.

وها نحن ذا ننتهج منهج سلفنا في ردِّ الأمر إلى مساره، ولا نغتر بجلالة من نقل عنه هذا الخطأ على- حد تعبير النووي- فالأمر يتعلق بمقام النبوة، فهو عندنا وعند كل مسلم أعلى وأجلّ من مقام المفسرين. والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا.

**

الخاتمـــة

بعد هذه المدارسة التحليلية لسورة عبس تبين لنا الآتي:

١- الأخبار التي يستشهد بها المفسرون لا تفسر الآيات وإنما تبين سبب النزول لا أكثر، وفرق كبير بين تفسير الآية وبيان سبب النزول.

٢- أن الأسباب التي رويت لنزول سورة عبس فهمت خطأ، ووضعت في موضعها.

٣- لا يوجد دليل نقلي أو لغوي أو عقلي لجمهور المفسرين في إرجاع ضمير عبس إلى النبي، إذ لا نجد في الأخبار الصحيحة ما يؤيد ذلك.

٤- ما أثبته المفسرون حول سورة عبس ليس عليه دليل من أي وجه كان، ولا يناسب أخلاق النبي القرآنية.

٥- إن منهج القرآن في خطاب النبي لا يتناسب وهذا التفسير المزعوم.

٦- لم يخاطب القرآن نبيه بضمير الغائب في جميع مواضع الخطاب.

٧- الخطاب بالغائب في أول السورة يتناسب مع خطاب القرآن للكفار في مواضع أخر من القرآن.

٨- شهرة الخطأ في التفسير وسيرورته لا تعني قبوله، وعدم معارضته. فلا نغتر بجلالة من أخطأ.

٩- أخلاق الكفار كما وردت في القرآن من العبوس في وجه النبي، والتولي عنه تناسب ما ورد في صدر سورة عبس.

١٠- مقاصد السورة ومحاورها تتجاوب مع مطلع السورة.

١١- السياق التاريخي لأخلاق النبوة قبل البعثة وبعدها يرفض ما ذهب إليه المفسرون وكذلك سياق الأخلاق النبوية في القرآن ترفض رفضا باتا هذا التفسير.

١٢- أسلوب الالتفات في القرآن مع النبي لا يتفق مع تفسير المفسرين في مطلع سورة عبس.

١٣- لا يضير المسلم في شيء إذا قلنا: إن الذي عبس في وجه النبي وتولي عنه هو الكافر.

١٤- جاءت سورة عبس تتوعد هذا الكافر وترفع عن النبي الحرج في التبليغ والدعوة.

١٥- وأخيرا نتساءل.

كيف يعبس من يقول: تبسمك في وجه أخيك صدقة؟

كيف يعبس من كان خلقه القرآن؟

كيف يعبس من قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؟!

كيف يعبس من أمر بالصبر في الدعوة من آيات المدثر الأولى؟!

كيف يقبل المسلم كلما قرأ آيات سورة عبس أن يتخيل أن النبي عبس في وجه أتباعه؟! وأنت مطلوب منك أن تتمثل آيات القرآن عند تلاوته.

وبعد... فهذا ما يسّر الله به في البيان عن هذه الآيات، فإن وفقت في الإبانة عنها، فمن الله وفضله ومنَّته، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني اجتهدت وتحريت ما يناسب سياق الآيات ومقام النبوة، وأدعو الله عز وجل ألا يحرمني الأجر والثواب في كلتا الحالتين. إنه قدير وبالإجابة جدير.

{ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }.

**

المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢. أحكام القرآن لابن العربي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣. أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، دار الغرب الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤. اصطفاء الفعل في الأسلوب القرآني، شادي صلاح محمود، حلب، سوريا، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٠م.

٥. البحر المحيط، تحقيق عبد الله التركي، ومركز هجر للبحوث والدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م .

٦. البيان في روائع القرآن، تمام حسان، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م.

٧. تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٨. التحرير والتنوير، لابن عاشور ، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ نشر.

٩. تفسير الطبري تحقيق عبد الله التركي بالتعاون مع دار هجر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٠. التفسير الكبير الفخر الرازي، دار الغد بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩١م.

١١.الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الله التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث، الطبعة الأولى، ١٣٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١٢.دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بمصر، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٣.سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤط وآخرين، مؤسسة الرسالة .

١٤.الشفا ٨٢٢/٢ ، وانظر ترجمته في الديباج المذهب، لابن فرحون.

١٥.ظلال القرآن، سيد قطب ، الشروق ، بيروت.

١٦.العدول في السياق القرآني، حسن حسين فياض، بحث بدون دار نشر أو مجلة.

١٧.علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١٨.عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، االمطبعة المنيرية.

١٩.فتح البارى، لابن حجر، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٢٠.قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين علي حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م .

٢١. قواعد الترجيح المتعلقة بالنص القرآني في ضوء ترجيحات الرازي عبد الله عبد الرحمن الرومي، دار التدمرية السعودية، الطبعة الأولى/ ٢٠١٠م.

٢٢.الكشاف ، تحقيق مصطفي أحمد حسين ، الاستقامة ١٩٤٦م.

٢٣.كيف تصبح مفكرا إبداعيا، مايكل ميكا لكو، ترجمة علا أحمد إصلاح، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مكتبة الأسرة).

٢٤.لسان العرب لابن منظور، دار المعارف.

٢٥.لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، دار عمار – الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٢٦.المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد إبراهيم الأنصاري وآخرين، وزارة الأوقاف قطر، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م.

٢٧.المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ط دار التأصيل، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٢٨.مسند أبي يعلى الموصلي تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٢٩.معايير تحليل الأسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة حميد لحميداني، منشورات دارسات سال، المغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٣٠.المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د محمد جبل، مكتبة الآداب ط ٢/ ٢٠١٢م.
٣١.المعجم الوسيط، ط مجمع اللغة العربية بمصر.
٣٢.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم – دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٣٣.منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد: ١١١الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.
٣٤.المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، عادل رشاد غنيم، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك ابن سعود، ١٤٣٤/٣/٦هـ – ٢٠١٣/٢/١٦م.
٣٥.الموطأ طبعة الأفكار الدولية بعناية حسان عبد المنان:
٣٦.الموطأ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة بن زايد، أبو ظبي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٤م.
٣٧.نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، اعتناء الدكتور عبيد الفراهي، دار الغرب، الطبعة ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
٣٨.الواو ومواقعها في النظم القرآني، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.

* * *